القصة عند العقاد

للأستاذ نجيب محفوظ

الفن — أيًا كان لونه وأيًا كانت أداته — تعبير عن الحياة الإنسانية ، فهدفه واحد وإن اختلفت كيفية التعبير تبعًا لاختلاف الأداة ، وكل فن فى ميدانه السيد الذى لا يبارى ؛ ففى عالم اللون التصوير سيد لا يعلى عليه ، وفى دنيا الأصوات الموسيقى سيد لا يدانى وهكذا ، فالفنون جميعًا تتفق فى الغاية وتتساوى فى السيادة كل بحسب مجاله ، وهى فى مجموعها تكون دنيا الأفراح والمسرات والحرية ، حيث يعيش أبناؤها على وفاق ومحبة وتعاون ، لا يكدر صفوهم مكدر إلا أن يتصدى رجل كبير كالعقاد لدنياهم المطمئنة ، فيرمى بحيرتها الساجية بحجر ثقيل يطين رائقها ، ويبعث الثورة فى أطرافها ، فيقول : إن هذا اللون من الفن راق وذاك منحط ، هذا عزيز وذاك مبتذل ، يقول هذا وهو أعلم الناس بالفنون ، وأحبهم لها ، وأحقهم بأن يعرف لكل قدره ومنزلته . ولن يفيد الفن شيئًا من تحقيره لبعض أنواعه ، إلا أن يغضب قومًا أبرياء يحبون الحق كما يحبه ويولعون بالجمال كما يولع به ، ويبذلون فى سبيل التعبير عنه كل ما فى طاقتهم من قدرة وحب . وعسى أن يقول قائل : إن العقاد ما قصد التحقير ، ولكنه مفكر وله الحق كل الحق أن يرتب الفنون عامة أو فنون الأدب خاصة كيفما يرى . وهذا حق فى ذاته ، ولكنى فى هذه القضية رأيت العقاد الخصوم يتغلب على العقاد الناقد . انظر إليه وقد لاحظ حواريه « فى بيتى العقاد » صغر نصيب القصص من مكتبته فأجابه قائلا : « ...لا أقرأ قصة حيث يسعنى أن أقرأ كتابًا أو ديوان شعر ، ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول » . فالرجل الذى لا يقرأ قصة حيث يسعه أن يقرأ كتابًا أو ديوان شعر ليس بالحكم النزيه الذى يقضى فى قضية القصة . والرجل الذى يلاحظ على مكتبته صغر نصيبها من القصة ينبغى أن تكون القصة آخر ما يرجع إليه فى حكم يتصل بها . بل إنه يفضل النقد — لا الشعر والنثر الفنى وحسب — على القصة . والمعروف أن النقد ميزان لتقويم الفنون ، فكيف يفضل على أحدها ؟ ! وهل تنزل القصة هذه المنزلة عند شخص إلا إذا كان لها كارهًا وعليها حاقدًا ؟ ! فحكم العقاد على القصة حكم مزاج وهوى لا حكم نقد وفلسفة . بيد أنى أريد أن أتناسى ذلك ، وأريد أن أنظر نقده بعين مجردة ، لأن لكلام العقاد قيمة خاصة عندى ، ولو كان مصدره المزاج والهوى

قال العقاد لصاحبه وهو يحاوره : « ... إننى أعتمد فى ترتيب الآداب على مقياسين يغنيانى عن مقاييس أخرى ، وهى الأداة بالقياس إلى المحصول ، ثم الطبقة التى يشيع بينها كل فن من الفنون ... ما أكثر الأداة وأقل المحصول فى القصص والروايات؟ إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذى يعطيكه بيت كهذا البيت :-

وتلفتت عينى فمذ بعدت   عنى الطلول تلفت القلب

إلى أن قال : « أما مقياس الطبقة ... فلا خلاف فى منزلة الطبقة التى تروج بينها القصة دون غيرها من الفنون الخ »

هذان هما المقياسان اللذان قضى بهما العقاد على القصة بالهوان وما هى القصة ؟ هى سيدة فنون الآداب دون منازع لثلاثة قرون خلت من أزهى عمر البشرية ، هى الفن الذى جذب إليه أكبر عبقريات الأدب فى جميع الدنيا المتحضرة المثقفة . فما حقيقة هذين المقياسين ؟

أما عن الأداة والمحصول ، فالحق أنهما شىء واحد فى كل فن رفيع ، ففى الشعر الجيد كما فى القصة الجيدة تتحد الأداة والمحصول ، وهذا يتفق ومعنى البلاغة التى يقول فيه الزيات : « إنها هى البلاغة التى لا تفصل بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة ولا بين الموضوع والشكل » . ذلك المعنى الذى أعجب به العقاد أيما إعجاب (الرسالة رقم ٦٣١) . ففى الفن الجيد — قصة كان أو شعرًا — ينمحى التنافر بين الأداة والمحصول ، فإذا زادت الأداة على المحصول فذلك شاهد ضعف أو ركاكة قد يعتوران الشعر كما قد يعتوران القصة ، ولكنه ليس صفة ملازمة للقصة دون غيرها من فنون الأدب ، فهذا القياس نافع للتمييز بين الجيد والردىء من آيات الفن الواحد ، لا للموازنة بين الفنون المختلفة ، لأن كل فن فى ذاته يشترط الانسجام الكلى بين أداته ومحصوله . إذاً كيف يرى العقاد كثرة الأداة وقلة المحصول صفة ملازمة للقصة ؟ ! لا أجد لذلك تفسيرًا إلا إذا كان العقاد يعد التفاصيل فى القصة زيادة فى

الأداة ، وإلا إذا كان يعتبر القصة عملا أدبياً مطولا ذا مغزى يمكن تلخيصه فى بيت واحد من الشعر . وهذا تفسير عجيب إن صح . فالقصة لا ترى لمغزى يمكن تلخيصه فى بيت من الشعر ، ولكنها صورة من الحياة ، كل فصل منها يمثل جزءاً من الصورة العامة ، وكل عبارة تعين على رسم جزء من هذا الجزء ، فكل كلمة وكل حركة تشترك فى إحداث نغمة عامة لها دلالتها النفسية والإنسانية ، وكل جملة — فى القصة الجيدة — تقرأ وتستعاد قراءتها ولا يغنى عنها شىء من شعر أو نثر . ولا تحسن التفاصيل فى القصة مجرد ملء فراغ ، ولكنها ميزة الرواية حقاً على فنون القصة الأخرى وفنون الأدب عامة . وهى لم توجد اعتباطاً ولكنها جاءت نتيجة لتطور العصر العلمى العام ، فالعلم هو الذى وجه الانتباه للأجزاء والتفاصيل ، بعد أن ركزته الفلسفة طويلا فى الكليات . اكتشف العلم لكل جزء من أجزاء المادة — حتى الذرة — حياة وأهمية ، وبدت آثار هذه النزعة العلمية فى عالم الآداب فى عناية الرواية بالتفاصيل ، لم يعد الأدب يكتفى بتحضير الأغراض المركزة ، وأدرك أن التفاتة أوفلتة لسانية أوحال إنسان وهو يتناول طعامه ، كل أولئك أمور لها دلالتها النفسية وتعبيرها الصادق عن الحياة . ومن عجب حقاً أن العقاد يعلم ذلك كله ، وأنا أذكر أنه كتب مرة — لا أدرى متى ولا أين — عن توماس مان ، فأشار إلى تفاصيله الدقيقة فى رواياته وبراعتها فى الدلالة والتأثير ، فكيف يساوى بيت من الشعر خمسين صفحة من قصة ؟ بل هل نغالى إذا قلنا إن صفحة من قصة تحتاج لعشرات البيوت من الشعر لتحيط بدقائقها وجمالها ؟ ! خذ مثلاً هذا البيت من الشعر الذى استشهد به العقاد « وتلفتت عينى ... » ولنفرض أننا نريد أن نستوحيه أقصوصة ، فما ذا نصنع ؟ أما الشاعر فقد تصور المعنى وليس هو بالبعيد المنال وصبه فى هذا القالب الجميل . أما القاص فينبغى أن يتصور إلى ذلك ذكراً وأنثى ، ويتخيل لكل منهما نموذجاً بشرياً خاصاً ، وعليه أن يصور زماناً ومكاناً ، وموقف وداع ، تارة محسوس تلتفت فيه الأعين ، وتارة معنوى يتلفت فيه القلب . فليس هذا الغرض هو نفس البيت ولا أكثر ، ولكن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الشجرة النامية ذات الزهر والثمر والبذرة الضئيلة . لقد رمى بعض المتعصبين للأجناس العرب بضعف الخيال والعجز عن الإبداع والتحليل والتفصيل والاكتفاء بتصور المعانى وتركيزها ، فهل يريد العقاد أن يؤيد هذه الأقوال الجائرة ؟ ! والواقع أن الإبداع الفنى لا يتمثل فى عمل أدبى كما يتمثل فى أدب القصة . ولذلك اتخذ أغلب السفر الخالد صورة من صور القصة كالملحمة والتمثيلية . هذا بعض ما يقال فى القياس الأول

وأما القياس الثانى ، فهو مقياس الطبقة ، يريد العقاد أن يقول : إن القصة تنتشر فى طبقة لا يتنازل إليها الشعر ، وإذاً فالشعر أرقى من القصة . وهذا قول وجيه من الظاهر ! ولكنه لا ينطوى على شىء خطير ، فمجرد انتشار فن فى طبقة لا يدل على شىء ما لم نبحث أسباب انتشاره . فالموسيقى تنتشر فى جميع الطبقات حتى بين الأميين ، فهل يقال إن النحت مثلا أرقى منها لأنه لا يكاد يتذوقه إلا رواد المتاحف ؟ ! ثم ما هى القصة المنتشرة حقاً ؟ أليست هى قصة الجريمة والمخاطرة والغرام المتبذل ؟ وكل أولئك ليس من القصة الفنية فى شىء . القصة الفنية — كما يعلم الدارسون لهذا الفن — حكاية تروى كالقصة المبتذلة ، إلا أنه يشترط فيها أن تعرض فى ثنايا رواياتها قيمة إنسانية أو أكثر كتصوير الشخوص وتحليل النفس والشاعرية والفكاهة والمعانى الفلسفية والآراء الاجتماعية ، بل من القاصين المحدثين من يستهين بالحكاية ويقتنع بالقيم ، فإذا خلت القصة من هذه القيم ، فهى حكاية وليست قصة فنية ، ولا يجوز لمنصف أن يحكم بها على هذا الفن وإلا جاز لنا أن نحكم على الشعر ببعض الأزجال الجنسية التى يحفظها العوام .

أجل إن القصة لا تزال أعظم انتشاراً من الشعر ولكن أكان ذلك لسيئة فيها أم لحسنة ؟ إن الخاصة التى تقرأ الشعر الرفيع وتتذوقه تقرأ القصة الرفيعة وتشغف بها ، وإذا كان العقاد لا يقرأ القصة إلا مضطراً فطه والمازنى والحكيم وإزنهاور يقرءونها بغير اضطرار . ولئن انتشرت القصة فى طبقات أخرى فما ذلك لسيئة بها ولكن لحسنتين معروفتين : سهولة العرض والتشويق . فانتشار القصة الجيدة بين قوم لا يهضمون الشعر الجيد مرده الى أن القصة فى ظاهرها حكاية تروى يستطيع أن يستمتع بها القارىء العادى لسهولتها وتشويقها . وليس بالسهولة من عيب يجرح الذوق السليم ، ولا بالتشويق من انحطاط يؤذى الفهم الرفيع